اللغة العربية فى المدارس الثانوية (١)

بقلم الأستاذ عبد الله عبد الجليل

المدرس بمدرسة طنطا الثانوية للبنين

لغطت الصحف اليومية فى موضوع ضعف التلاميذ فى اللغة العربية لغطا لم يستطع التحرز منه قراء هذه الصحف على اختلاف ألوانها، وتباين منازعها. ومما لحظته فى هذه الضجة حول هذا الموضوع أن كثيرا ممن أثاروها وكتبوا فيها ليسوا من رجال التعليم.

ولذا جاءت آراؤهم بعيدة عن الصواب أحيانا أو جانحة أحيانا أخرى إذ ليس لهم من التجربة الشخصية والاتصال بالحياة المدرسية ما يعصمهم مما تورطوا فيه من آراء وأفكار لم تكن إلا وليدة مخيلاتهم ونتيجة تصوراتهم.

والحق الذى لا مرية فيه أن فى التلاميذ ضعفا فى اللغة العربية ولكنه ليس ضعفا فى اللغة نفسها ألفاظها وتراكيبها وأساليبها كما زعموا. فهم يفهمون ما يلقى عليهم من الدروس — خصوصا دروس اللغة والأدب — فى لغة عربية صحيحة فصيحة كما يفهمون ما يقرءون من الكتب التى بأيديهم وبعضها من الأدب فى منزلة لا يسمو إلى تذوقه فيها جهول ولا يعييهم التعبير عما يخالج نفوسهم من آراء أو يقع عليه حسهم من مشاهدات. وكل ذلك فى كفاية تقترب بهم كثيرا نحو مثلهم الأعلى، وقد تصل بقليل منهم إلى قمة هذا المثل وذروته. وفى المدارس موضوعات الإنشاء التى كتبها فى امتحان السنة الحالية تلاميذ السنوات الثلاث الأخيرة. فهى خير شاهد عدل على صحة ما أقول فى البيئة التى أعمل فيها على الأقل. ولقد يرى الباحث بين هذه الموضوعات مالا ينقصه تمحيص الفكرة وغزارتها ولا يعوزه فى التعبير الدقة والطلاوة ولا فى

(١) ورد هذا المقال لينشر فى الجزء الرابع من السنة الأولى إلا أننا لأسباب قاهرة اضطررنا إلى إرجائه إلى هذا الجزء.

الأسلوب الروعة والحلاوة . ففيم إذا ضعف التلاميذ ؟ . إن ضعفهم — فيما أسمع وأرى — إنما هو من ناحية انتفاعهم بما يدرسون من القواعد فيما يقرءون وفيما يكتبون وفيما يتحدثون أى أنهم لا يحسنون إعطاء أواخر الكلمات حقوقها وتطبيق هذه القواعد قراءة وكتابة وحديثا فهم على حد الآية الكريمة « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا . عسى الله أن يتوب عليهم » وهذه الناحية من الضعف هى بلا ريب ذات بال ولها خطرها إذ لا يمكننا أن نعتبر اللحانة تام الثقافة فى اللغة العربية بل هو ناقص الأداة بادى العورات فيها .

وليس ثمة مجال للشك عندى أن هذا الضعف إنما كان وليد خطة الدراسة أو المنهج وجو المدارس أو بيئتها بالنسبة للغة العربية . وإنى لبسبيل من أن أسجل ملحوظاتى على العموم عن كل من المنهج والجو المدرسى بالنسبة للغة العربية مستلهما تجربتى ومشاهداتى موجزا ما استطعت إلى الايجاز سبيلا .

١ — المنهج

قواعد النحو والصرف : هى فى الوقت الحاضر أبواب وفصول من هنا وهنالك ، روعى فى اختيارها وترتيبها أنها تكملة لما درسه التلاميذ فى المدارس الابتدائية ، على أن ثمة موضوعات كثيرة هامة اكتفى بدراستها فى المدارس الابتدائية ، والاطمئنان إلى ما درسه التلاميذ فى المدرسة الابتدائية اطمئنانا يصل إلى هذا الحد إغفال لطبائع التلاميذ عندنا ، فان التلاميذ الآن يحصلون على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية وأسنانهم صغيرة ، أى أن السنتين الأولى والثانية ، على وجه خاص ، يكثر فيهما هؤلاء الصغار . وتلاميذنا لا ينضجون ولا يهضمون المعلومات وهم فى أسنان صغيرة . ثم هم يعتمدون فيما يدرسون فى المدارس الابتدائية على الذاكرة ، لأن سوط الامتحان ، ويده القاسية ، يدفعانهم دفعا إلى هذا الحشو الذى ليس من التعليم المثمر ولا الثقافة النافعه فى شىء . فاذا أريد تكوين التلاميذ فى المدارس الثانوية تكوينا صالحا يبرءون به من ضعفهم السابق الذكر ، فلا بد أن يدرسوا من قواعد اللغة كل ما من شأنه محاربة اللحن وإقدارهم على إعطاء آخر كل كلمة ما يستحق من حركة أو سكون (أحوال الفعل من حيث إعرابه وبناؤه

وتوكيده وإسناده — واحوال الاسم — فى بنائه وإعرابه — مع عوامله المختلفه) أما مباحث الصرف فيجب أن يقتصر فيها على الضرورى ، على أن يوزع بمناسبات دروس القواعد . وتختص السنة الأخيرة بأكبر نصيب منها .

المطالعة : يطالع التلاميذ الآن كتبا مضبوطة فى الغالب ، خصوصا فى السنوات الثلاث الأولى ، ولعل الذين رأوا هذا الرأى أرادوا أن يحولوا بين المدرس وبين إضاعة الوقت فى النقاش الذى يدور بينه وبين تلاميذه ، لرعاية القواعد وضبط أواخر الكلمات على وجه صحيح ، وأن يفهموه أن الغرض الأساسى من درس المطالعة إنما هو تزويدهم بما يستطاع من المفردات والتراكيب والأساليب والمعانى والأفكار الصالحة . ومع تقديرنا لهذا الرأى لما فيه من فائدة التلاميذ لا نوافق على هذه المبالغة التي أضاعت على التلاميذ خيرا كثيرا ، فإن مطالعتهم فى هذه الكتب المضبوطة غرست فيهم التهاون من هذه الناحية ، وأضعفت من قوة ملاحظتهم ، وجعلتهم يعتمدون على غيرهم فى أن يقودهم إلى الصواب كما يقاد الأعمى إلى مقصوده . إن المطالعة فى كتب مضبوطة يجب أن تمنع ابتداء من السنة الرابعة الابتدائية ليعرف التلاميذ أن مجرد العلم باللغة العربية : مفرداتها وتراكيبها — من غير أن يحذقوا تطبيق القواعد التى درسوها على هذه المفردات والتراكيب — نقص قبيح وعيب من العيوب التى لا تغتفر .

متن اللغة وتاريخ الأدب : أما متن اللغة فدراسته تكاد تكون غير مجدية ، خصوصا إذا روعى أن بعض الفرق جاء منهجها كليل امرئ القيس وقد تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل . حتى إن المطلوب من تلاميذ القسم الأول دراسته فى باب الصحة والاعتلال — وهو واحد من أبواب عدة — من الطول بحيث يمله من نصبوا أنفسهم لدراسة متن اللغة وحده . وإذا تذكرنا أن الدرجة التى تخص متن اللغة فى الامتحان درجة تافهة ، أدركنا كيف يقابل التلاميذ هذه المادة . إن حفظ المعاجم وكتب اللغة ليس طريقا من طرق إتقان اللغات . وإنما يحاط باللغة إحاطة نافعة مجدية بدرس النصوص الأدبية ، التى تشتمل على ألفاظ اللغة وتراكيبها مستعملة فى عصورها المختلفة . وفى الأدب العربى — والحمد لله —

متسع لهذا وغناء وكفاية . ولم لا يكلف التلاميذ دراسة شيء من دواوين الشعر ودواوين الرسائل وما يشبههما ، بحيث يختار لكل فرقة ما يناسبها فى أى عصر من عصور ، مع التوسع فى الشرح اللغوى على حسب ما تسمح الحال ؟ لعل ذلك أدعى لشوق التلاميذ وخير لهم وأبقى .

وأما تاريخ الأدب فيدرس الآن بطريقة عملية مشوقة ، إذ تستنبط قضاياه وأحكامه بالنسبة للعصور المختلفة ، ورجال الأدب فيها من عرض النصوص والآثار الأدبية ودراستها والموازنة بينها . غير أن منهج الأدب لطلبة القسم الأول مفاجأة خطيرة لهذه العقول الصغيرة . إذ هو يطلب أن يعرفهم بأحوال اللغة من أقدم عصورها المعروفة إلى وقتنا الحاضر فى درس واحد فى الأسبوع . ومهما يكن من شيء فإجابة هذا الطلب أشبه شيء بالمستحيل ، لو كان المقصود أن التلاميذ يعرفون شيئا جديا ذا قيمة فى تاريخ الأدب . إن فى ظننا أن خيرا من هذا كله درس فترة من تاريخ الأدب العربى دراسة عميقة يتشبع فيها الطالب بروحها ، ويدرك أثر نابغيها فى الأدب العربى ، وأثر بيئاتهم فيهم حتى أجدوا على الأدب ما أجدوا بفعل الزمان والمكان ، وما فيهما من ملابسات ومؤثرات .

٢ — جو المدارس وبيئتها بالنسبة للغة العربية

جداول دروس اللغة العربية : نقترح فى شأن هذه الجداول أن يتسلم الأستاذ تلاميذه من السنة الأولى ، ويظل معهم إلى أن يخرجهم ليكون المسئول واحدا . وهذه الطريقة تكاد تكون مهجورة فى مدارسنا ، ولسنا ندعى سلامتها من العيوب ، ولكن لماذا لا نجربها ؟ أن كثيرا من الأساتذة يقررون أن التلاميذ الذين رافقوهم سنين متوالية بطريق المصادفة البحتة قد ظهر أثر مجهودهم فيهم ظهورا جعلهم يطيبون نفسا بهم من ناحية العلم والنظام . واذا كان يخشى من هذه الطريقة فى بعض النواحى . فإننا نستطيع أن نحول دون وقوع ما نخشاه باختيار أساتذة تتوافر فيهم صفات مشتركة تسوى بينهم على قدر الامكان .

لغة التدريس : — إن تدريس فروع اللغة العربية غير معقول ، وليس صحيحاً فى الأفهام أن يكون بغير هذه اللغة نقية خالصة مبرأة من شائبة اللحن وهجنة العامية ومهانة الدخيل . وعلى أساتذة اللغة ألا يسمحوا لأنفسهم بالتهاون فى هذا لحظة ، فإن دروسهم وأحاديثهم أول البيئات وأشدها أثراً فى تقويم ألسنة الطلاب ، والتمكين لهم فى لغتهم القومية . على أن هذا الواجب لايخص أساتذة اللغة وحدهم ، وإنما هو ايضاً فى أعناق أساتذة العلوم الأخرى التى تدرس باللغة العربية . ولو تحقق هذا فلا بد أن تنهض اللغة العربية وتسلم من شر أدوائها على ألسنة طلابها ، فالتلاميذ الآن يرون كثيراً من أساتذتهم لايصطنعون العربية الصحيحة فيما يدرسون ، ولهم مالهم فى النفوس من كرامة ، وفى القلوب من منزلة ، فلا غرابة أن يرسخ فى أذهانهم أن اللحن ، والتكلم بالعامية ، واستعمال الألفاظ الدخيلة ، بل التعبير أحياناً عن بعض المعانى بعبارات من لغات أجنبية ، والحديث دائر بالعربية ، أشياء لاعاب فيها ولا ملامة ؛ ولهم فى أساتذتهم ورؤسائهم والقائمين على شؤونهم أسوة أى أسوة والصغار أبداً مولعون بمحاكاة كبارهم .

اعمار الدروس واشراك التلاميذ فيه : — تلك طريقة وإن اتسمت بالقدم ، خصوصا عندنا فى مصر حيث حمل الأزهر لواءها أجيالا طوالا ، فقد دلت التجاريب الحديثة فى طرائق التربية والتعليم فى أرقى الممالك شعوبا وأعلاها كعوبا على أنها خير طريقة تسير بالمتعلمين قدما فى سبيل تربية الملكات ، وإنمائها ، وتوسيع المدارك ، وتفتيح الأذهان ، وغرس كثير من أمهات الفضائل وجليل الشمائل . فان البحث الشخصى قبل حضور الدرس يهيء للطالب الفرصة لاختبار عقله ، ويقفه أولا فأولا على الأشواط التى قطعها فى طريقه إلى النضج والفهم الصحيح ؛ ثم هو يشعر فى ذلك أن له فى الدرس موقفا غير موقفه فى درس لم يسبق له أن رآه أو بذل فيه مجهوداً قليلا أو كثيراً . فهنا يعمل الطالب لنفسه وبنفسه ، ولا تلقى عليه المعلومات كأنها أوامر يجب أن يخضع لها . وهنا عزة الطالب والاعتراف به وبحريته فى الرأى . إننا من غير شك نلجأ إلى هذه الطريقة النافعة فى كثير من

الدروس ، ولكننا حين نريد أن نلجأ اليها فى أهم دروس اللغة ، وهى دروس النصوص والمطالعة ، نرى التلاميذ وقد خلت قماطرهم ومنازلهم من كتب اللغة ومعاجمها التى لابد منها لشرح ماغمض من الألفاظ ، وتحديد معانيها ، ومعرفة شىء عن أصولها وفصائلها . فتلاميذ القسم الأول لا يعطون كتبا فى اللغة على الاطلاق ، وطلبة القسم الثانى يعطون كتيبا لايشفى غلة ، ولا يعين فى إعداد معظم الدروس ، على أنهم يزودون بالمعاجم الضرورية لهم فى الانجليزية والفرنسية ابتداء من السنة الأولى . وهذه ظاهرة تملأ نفوسنا ـ معشر أساتذة العربية ـ أسفا وحسرة ، لابد أن يكون فى متناول التلاميذ معاجم كافية فى اللغة العربية فاما أن توزع على كل تلميذ ، وإما أن تعد حجرات لاعداد الدروس بالمدارس يغشاها الطلبة فى غير أوقات الدروس ، وتكون مجهزة بأكثر من معجم واحد .

مكتبات المدارس — ليس فى المدرسة مكان لا يغشاه الطلبة ، ولا صلة لهم به ، كذلك المكان المعروف فى كل مدرسة باسم المكتبة ، ثم يطالب أستاذ اللغة بعد ذلك أن يغرس فى الطلبة حب القراءة وتعودها . وكيف يستطيع ذلك إذا لم يعط الطلبة فرصة التعرف بالكتب الأدبية المختلفة ؟ اللهم لا سبيل إلى هذا التعرف إلا بفتح أبواب هذه المكتبات أمام الطلبة . ولماذا يعطى المدرس الذى يوكل اليه أمر المكتبة نصف جدول أو يزيد قليلا ؟ أذلك لأن يأتى إليه المدرسون فى اول العام الدراسى ليأخذ كل منهم مايريد من المراجع التى تلزمه ، فاذا ما انقضى أسبوع او أسبوعان لم ير أحدا منهم أبدا ؟ إن كل شىء فى المدرسة يجب أن يكون للتلميذ فيه نصيب . وليس من المنطق فى قليل أو كثير أن تعطل دور الكتب عن خدمة الثقافة فى دور الثقافة .

جماعات اللغة العربية ونواديها — يجب أن تنشأ جماعات ونواد يفرض على أعضائها ألا يتحدثوا ولا يدور بينهم نقاش إلا باللغة العربية الصحيحة . ونصف ساعة فى كل يوم كفيل أن يخدم اللغة العربية بين التلاميذ خدمة جليلة ، إذا زارهم كل يوم أستاذ يتحدث معهم فى أمر من الأمور التى يشوقهم التحدث فيها من حوادث اليوم ومسائل الحياة .

اتصال دروس المطالعة بالحياة — يجب أن يرد إلى المدارس أعداد كافية من المجلات العلمية والأدبية المحترمة، كالمقتطف والهلال والرسالة وأشباهها، ليستطيع الأستاذ أن يوزع من إحداها العدد الكافي لفرقة ما، ويدرس معهم موضوعا يختاره ليكون التلاميذ على اتصال بالحركة العلمية والأدبية في وقتهم الحاضر، ولتتاح لهم الفرصة أن يعرفوا شيئاً عن أعلام العلم والأدب المعاصرين. أما التزام كتاب واحد طول السنة فلا يخلو من ملل وسآمة.

طول المناهج والتشدد في اتمامها قبل نهاية العام الدراسي بنحو شهرين — لاجدال في أن بعض المناهج طال واسبطر، فما يتناسب مع الزمن المقرر له، كما لاجدال أيضا في أن المدرسين يطلب إليهم في المدارس أن يتموا المقررات والمناهج قبل نهاية العام الدراسي (على قصره في المدارس الثانوية) بستة أسابيع على الأقل. ويعلق القوم على الاعادة أكبر الآمال وأوسعها. وهكذا يركب الأساتذة قطراً سريعة لقطع المناهج، ويحملون حملا على تمتين الطبقات العليا من البناء، دون أن يكون هذا مطلوبا منهم بالنسبة للأساس في البناء نفسه. على هذا يجرى العمل في المدارس بالنسبة لجميع المواد المقررة، ولسنا ندري متى ينتهي أمد هذا التعليم الآلي الذي وأد العقول وأدا، وورد الملكات على أعقابها ردا.

الجمع في الاعمال التحريرية — لقد أصبحنا — والحمد لله الذي لايحمد على مكروه سواه — لا نرى مظهرا من مظاهر كفاية المدرس وقدرته الفنية، أروع ولا أدعى إلى التقدير من إعطاء موضوعات تحريرية كثيرة، تغطي الزمن المقرر كله في نصف السنة الدراسية. والواقع الذي لاريب فيه، أن هؤلاء المدرسين الذين ورطهم حب الثناء في هذا إنما فعلوا ما فعلوا بعد أن تناسوا الدروس الشفوية، ولم يراعوا لها أثراً، أو يقدروا لها خطراً. وما لهم يقدرونها حق قدرها وأصوات الاستزادة لايسكن لها صخب، ولا يهدأ لها ضجيج ينبعث من داخل المدرسة وخارجها؟ وما لنا نعجب إذا رأينا التلاميذ يخبطون خبط عشواء

الليل يرتكبون أفحش الغلطات الإعرابية وأقبحها ، إذا كانوا كاتبين أو قارئين أو متحدثين .

وبعد فتلك حال اللغة العربية فى المدارس الثانوية ، وهذه هى الأسباب والعلل التى تحول بين التلاميذ وبين الوصول إلى مثلهم الأعلى فى لغتهم القومية الوطنية ، وإنى لأتقدم بما كتبت ـ شهادة خالصة لوجه الله والوطن واللغة ـ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ،

عبد الله عبد الجليل

— ١٦ —

تظلم أهل الكوفة من عاملها إلى المامون ؛ فقال : ما علمت فى عمالى أعدل منه ؛ فقال رجل من القوم : يا أمير المؤمنين فقد لزمك أن تجعل لسائر البلدان نصيبا من عدله ، حتى تكون قد ساويت بين رعاياك فى حسن النظر ، فأما نحن فلا تخصنا به أكثر من ثلاث سنين .